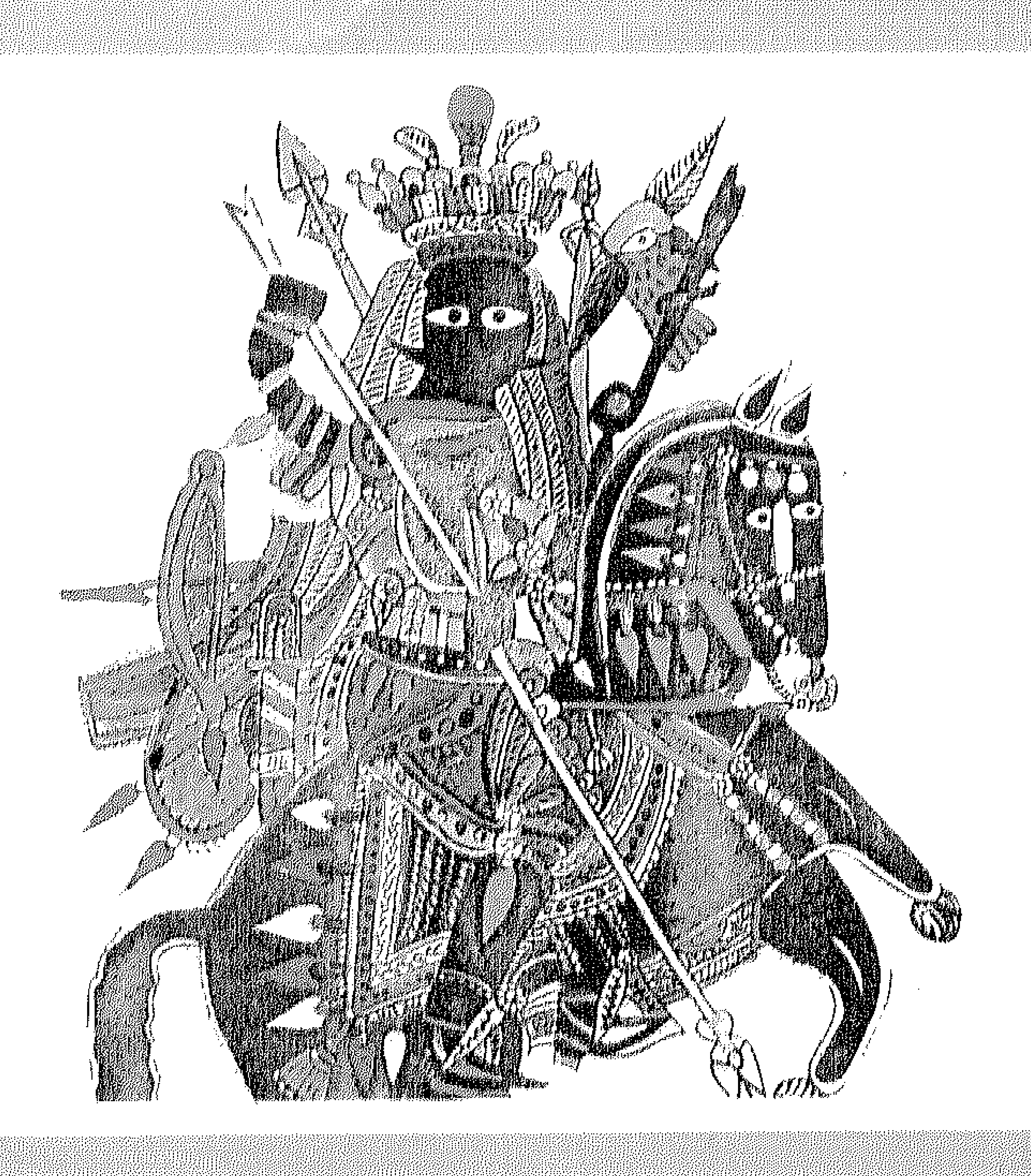
قراءات إنسانية

سيرة عنترة

ملحمة شعبية عالمية

د. عبدالحميد يونس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

سيرة عنترة

سيرة عنترة

ملحمة شعبية عالمية

د. عبد الحميد يونس



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

سيرة عنترة

ملحمة شعبية عالمية

د . عبد الحميد يونس

تعد « سيرة عنترة » العربية الشعبية بحق من روائع الملاحم العالمية ، فما من مصنف ينتظم هذه الروائع ، يخلو من عرض موجز أو مفصل لهذه السيرة التى تؤكد حقيقتين بارزتين ، هما : أن الآداب الشـــعبية ليست كلها محلية محصورة فى بيئة جغرافية محدودة أو وطن معروف ، وأن الشعوب تتبادل التأثر والتأثير على اختلاف العصور وتباعد الديار . والباحثون اذا تجاوزوا ما فى الملاحم الشعبية من وجوه التماثل ، فانهم يسجلون ، وبخاصة عن سيرة عنترة ، أنها كانت من الروائع التى احتفلت بها أوروبا فى القرن الثامن عشر ، وربما قبل ذلك ، ثم أصبحت من الموضوعات الأساسية فى الدراسات الأدبية بصفة عامة ، وفى دراسات الأدب المقارن بصفة خاصة ابان القرن التاسع عشر ، ولم يقل أحد من الدارسين فيها الكلمة الفاصلة الى الآن ، فما أكثر

ما فيها من العناصر الثقافية والأساليب الفنية التى تحتاج الى تحقيق تاريخى ، وتحليل أدبى • واذا كنا نلمس منذ البداية تشابها أو تطابقا بين بعض حلقات هذه السيرة ، وبين ملحمة السيد الاسبانية ، وأغنية الرولان الفرنسية ، فاننا لا نستطيع أن نغفل اعجاب ناقد أدبى عظيم مثل « هيبوليت تين » بهذه السيرة العربية ، ووضعها بين الروائع الملحمية العالمية مثل سيكفريد ، ورولان ، والسـيد ، ورستم ، وأوديسيوس ، وأخيل • كما أن الشاعر الفرنسى لامارتين كانت تأخذه النشوة ، ويستبد به الطرب كلما ذكر هذا البطل العربى عنترة ، أو اطلع على جانب من ملحمته الرائعـة •

ولم يكن انتخاب الشعب العربى لهذا البطل الجاهلى بلا سبب حيوى أملاه عليه موقفه من ذاتيته القومية العامة من ناحية ، ومن الشعوب الأخرى التى تسلت الى موطنه وغلبته على مصالحه من ناحية أخرى • ومن الواضح أن الشعب العربى انما اعتصم بموطنه الأصلى ، وهو الجزيرة العربية ، والتفت الى عصر نقاء الجنس وهو الجاهلية ، عندما أحس بوجدانه القومى ينبض دفاعا عن الحمى والنفس ، بعد انحسار موجة الفتوح الاسلامية ، واستئثار غير العرب من المماليك وأشباههم بمقدرات الحكم فى أجزاء من الوطن العربى وابان ذلك الصراع الدموى الطـويل الذى عرف بالحروب الصليبية ••• من أجل هذا كله انتخب الشعب العربى مثالا بارزا للفروسية العربية الجاهلية وهو عنترة

بن شداد العبسى الملقب بأبى الفوارس ، وهو الذى جمع بين الفتوة والتبريز فى الشعر ، والذى أسهم فى أيام العرب المشهورة ، والذى كان من أصحاب المعلقات .

ولقد شغل الباحثون أنفسهم ، ولا يزالون ، بمحاولات الحكم على هذه السيرة الشعبية من ناحية النوع الأدبى ، ومن ناحية البناء الفنى ، ومن ناحية التأريخ ، وقلما عنوا بالباعث الأصيل الذى أثمرها . وهى كغيرها من نصوص الأدب الشعبى ، تكاملت فى بيئات عربية مختلفة ، ولم تبلغ غايتها من الكمال الا بعد أن استنفدت الأجيال والقرون فى النماء والتطور والتراكم ، ولهذه الحقيقة دلالتها الكبيرة ، وهى : أن الوجدان القومى تشبث بالمثال الذى انتخبه ورآه ملائما لما يريد أن يعبر عنه ، فلم يحتفظ به حقبة تقصر أو تطول ، ولم يجعله موضوع غنائه فى بيئة واحدة مهما كانت ، وانما ظل يعبر بوساطته عن هذا الوجدان بأبعاده التاريخية ، وبما تصور من أمجاده ، وبما أراد أن يرسب من معارفه ، وبما اعتصم به من قيم يفرض على أفراده جميعا التصعيد اليها فى السمت ، وفى الفكر وفى التعبير وفى السلوك جميعا . ولا يرد اهتمام الشعب العربى بشخصية عنترة على هذا النحو الى رواة الأخبار كالأصمعى وأبى عبيدة وأمثالهما ، وانما يرد الى الفترة التى عاشها هذا الفارس العربى ، واشتهر بخلائقه ومواقفه ووقائعه حتى تجاوز ذكره منازل بنى عبس الى الجزيرة العربية أولا ، والى الوطن العربى الكبير ثانيا ... ولقد ذكر عنترة أيام النبى صلى

الله عليه وسلم ، ولهجت به ألسنة بعض الصحابة ، وتردد اسمه في صدر الإسلام ، وحمل الفرسان أخباره مع الفتوح ، وذكر الجاحظ أنه كان زاد العامة في السمر ، ونمت هذه الشخصية بنمو الوجدان القومي العربي حتى تكاملت صورة الملحمة ، وتخصص في سردها وانشادها فريق من القصاص الشعبيين ، وسجل العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية هذه الحقيقة ، كما سجلها ادوارد لين الذى وصف عادات المصريين المحدثين وأخلاقهم قبل الاحتلال الانجليزى للديار المصرية ، وكانت سيرة عنترة الأخت الشقيقة لسيرة بنى هلال ، عرف المتخصصون في الأولى بالعناترة ، والمتخصصون في الثانية بالهلالية •• ومن اليسير أن يتبين الدارس النواة الأصيلة التي أصبحت على مر الأجيال والقرون سيرة شعبية كأنها الشجرة المورقة بجذورها وساقها وأغصانها وثمارها ••

أبو الفوارس في الجاهلية :

وهناك سؤال ينبغي على كل باحث أن يجيب عنه قبل أن يعرض للنواة الأصيلة التي تطورت حتى أصبحت سيرة شعبية ، وهذا السؤال هو : لماذا حفر عنترة بن شداد العبسى صورة شخصيته ، وأحداث سيرته في ذاكرة الشعب العربي دهرا طويلا ، ولم تحتفل هذه الذاكرة بأنداده من فرسان الجاهلية ، وفيهم من كان أعرق نسبا ، وأوفر مالا ، وأقوى شكيمة ؟ ••

لقد ذكر الشعب العربى الزير سالم فترة من الزمن ، ولهج بسيف بن ذى يزن فترات ، ولم يكن لهما مع ذلك نفس المكانة التى لا تزال لعنترة فى وجدان الشعب العربى الى الآن • وتكمن الاجابة فى أن محور سيرة عنترة ابن شداد العبسى يدور حول الحرية التى افتقدها المواطن العربى عندما التفت الى الجزيرة فى مرحلة نقاء الجنس ، واذا أردنا أن نجمل سيرة هذا الفارس فى عبارة واحدة ، فاننا نستطيع أن نقول : انها كانت صراعا أراد به صاحبه أن يحقق وجوده كفرد حر فى مجتمع حر ، يضاف الى ذلك أنه كان شاعراً ، فالحديث فى سيرته واقع وتعبير معا ، ولم تكن فطنة الشعب لتغفل عن هذه الحقيقة التى يمكن أن تكون حافزا شخصيا لكل مواطن عربى ، وقوميا لكل مجتمع عربى • ولذلك تجاوز عنترة عصره ودياره وظل بملحمته جزءا لا يتجزء من التراث الشعبى الحى • واذا كان من العسير على المؤرخ أن يحقق سيرة عنترة من تلك الأخبار والروايات المتناثرة ، فان من السهل على دارس الأدب الشعبى أن يتبين النموذج الأول بما يتسم به من تعميم ، وملامحه البارزة هى التى استغلها الشعب فى ذلك الأثر الأدبى الضخم الذى اتخذ مكانه بحق بين روائع الملاحم العالمية ، وهو نموذج الفارس العربى الجاهلى •

ولقد عرفت الأمـــة العربية الفرس من قـــديم ، ولا يستطيع المؤرخون أن يحددوا على التحقيق الفترة التى

دخل فيهـــا هذا العنصر الحى الجزيرة العربية ، وكل ما يستطيعون قوله هو أن الفروسية كانت نظاما له عرفه المكين ، وتقاليده الراسخة مما يدل على قدم هذا النظام فى الجزيرة ، وبديهى أن الفرس كانت شارة السؤدد والشرف والغنى ، ولم يكن كل أعرابى يملك فرسا ، واعترف المجتمع بمكانتها فصانها ، وثقف تربيتها ، وحفظ لها أنسابها ، وبرز الى الوجود فن عملى يرتبط بها فى الحرب والرحلة ، وفى التدرب على الكر والفر وحمل السلاح ، والمعجم العربى القديم غنى بالألفاظ الخاصة بالأفراس فى مراحل نموها وشياتها وأوصافها ومزاياها ، وبكل ما يقترب بها من ثقافة عملية منوعة ، وحفلت الحياة تبعا لمكانتها هذه بالبيئات المتخصصة فى تربيتها وتدريبها ، كما حفلت بالتناظر حولها كالمنافرة على النسب والأصل والجاه والقوة ، وتخذت الفرس موضوعا من أهم موضوعات المناظرة ، فكان الرهان عليها ، وكان التسابق بين الأفراس ، وكانت الحروب التى اشتجرت بسببها ، مثل يوم داحس والغبراء الذى أسهم فيه عنترة بن شداد العبسى •

والفروسية العربية الجاهلية تلخص جميع الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بها كل عربى حر ، وتجملها كلمة « المروءة » التى كانت تعنى القدرة على حماية النفس والأهل والجار والضعيف والمال ، والتى كانت تعنى الى جانب هذا كله الاستعلاء على الصـــغائر والبذل بلا مقابل ، وهذه الفضائل لا يمكن أن يتحلى بها ضعيف البدن والنفس ،

فالفروسية اذن تعنى الحرية فى اطار الفضيلة ، كما يريدها المجتمع ، وتعنى القوة وما ينبغى لها من قدرة ومن دربة ومن استعلاء • واذا كانت الفروسية الأوروبية فى أخريات القرون الوســـطى نظاما أرستقراطيا حفزته اليه عواطف الحب بانتخاب فتاة تشبه العذراء ، كما حفزت اليه العاطفة الدينية بمحاربة الخارجين عليها ، فان الفروسية العربية الجاهلية عرفت الحب العفيف هى الأخرى ، وعملت على حماية الوطن والنفس والمال ، كما عملت على تحقيق التفوق والامتياز على المجتمعات الأخرى ••• عرفت الفروســـية الأوروبية الحب والدين والحرب ، وعرفت الفروسية العربية الجاهلية الحب والحرب فقط ، وهذا هو الاطار العام الذى حاول فيه عنترة بن شداد العبسى ، بل صارع ، من أجل أن يحقق وجوده وتفوقه وامتيازه حتى استحق آخر الأمر أن يلقب بعنترة الفوارس •

وما نريد أن نقع فى الدور المنطقى باستخلاص سيرة عنترة وشخصيته من شعره ، أو بتحقيق هذا الشعر على أساس من تحقيق الأخبار والروايات والأيام ، فان ذلك لا يجدى هذا البحث شيئا ، وحسبنا أن نســـجل فقط ما استقر منذ البداية فى الأخبار ودواوين الأدب من أن عنترة لم يولد حرا كغيره من فتيان العرب • فقد كانت أمه أمة حبشية تدعى زبيبة ، ولد على شاكلتها أسمر مشقوق الشفة حتى لقب بعنترة الفلحاء ، وعلى الرغم من انتسابه الى شداد بن قراد من عبس ، فانه كان عبدا يحس بعقدة

الدونية في مجتمع الأحرار بين اخوته وأبنـــاء عمومته وما أكثرهم • وهذا الاحساس بالمغايرة بينه وبينهم في المعاملة والمكانة ، جعله ينفر من ذل الهوان ورتابة العمل وضآلة الشأن • وأدرك أن الفروسية ربما كانت وسيلته الوحيدة الى الحرية وكانت حظ الأحرار ، بل حظ الأشراف فاحتال بوسائل مختلفة حتى تدرب عليها • ولقد أعانته على بلوغ غايته ، بسطة في الجسم ، وقوة في العضل وقدرة على الصبر ، ومرونة في الحركة ، وليس من شك في أن الاحساس بالمغايرة جعله يلتفت الى ذاته المفردة أكثر من سواه ، ويعمل جهده على حمايتها من الضيم والأذى فكان سريع البادرة ، يرد العدوان ، حتى اشتهر أمره بالجلد في العراك ، واللدد في الخصومة وليس من شك أيضا في أنه عانى كثيرا من عوامل الصراع النفسي بين الواقع الذى كان عليه ، وبين ما ينبغي أن يحققه لنفسه ••• وهذه المواجهة للفارق بين الواقع والمثال عملت على تصفية نفسه من الصغائر وحفزته الى الاستعلاء ••• لم يكن كغيره من العبدان مستسلما لوضعه مفلسفا له ، وانما كان ايجابيا في العمل على تغييره مهما لقي من عنت ومهما وضع في سبيله من عقبة ••• وكانت السبيل الوحيدة هي أن ينهض بعمل عام يفيد منه المجتمع كله ، وكانت فرصته عندما أغار على الحمى مغير ، وضعفت ارادة الأحرار عن رده ، فتنادوا مشيرين الى عنترة ، وكان الحوار العبقري بينه وبين أبيه ، وهو الحوار الذى لم يظفر بوساطته بالحرية فحسب ،

العرب على بنى عبس فأصابوا منهم واستاقوا ابلا فتبعهم العبسيون ولحقوهم ، فقاتلوهم عما معهم - وعنترة يومئذ فيهم - فقال له أبوه « كر » فقال : العبد لا يحسن الكر ، وانما يحسن الحلاب والصر ، فقال أبوه : كر وأنت حر ... وقاتل عنترة يومئذ قتالا حسنا ، فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه » (١) .

وهكذا أصبح عنترة بن شداد العبسى فارسا حرا بين فرسان أحرار ، ولكن العقدة النفسية التى حفزته الى تحقيق الوجود الحر لم تبدد ، وانما ظلت تعمل عملها المستمر لتحقيق التفوق ، ذلك لأنه اذا كان قد أحرز المساواة فى الحرية من الناحية المعنوية ، فان لونه الأسمر ظل كالحاجز بينه وبين الآخرين ، بل ظل كالعلامة التى تعبر عن أصل مختلف ، ولذلك لم ينقطع هذا الفارس الأسمر عن الشعور بالمغايرة ، والاحساس بالنقص ، ولابد لمثله أن يحقق عملا خارقا يرغم المجتمع على الاعتراف - لا بمساواته - ولكن بامتيازه . ومن حق كل امرىء حر أن يبنى بابنة عمه ، وبخاصة فى المجتمع العربى الذى لا تزال بعض تقاليده راسخة فى البداوة وما يشبهها الى الآن ، فاذا أراد أعرابى أن يزوج ابنته كان عليه أن يحصل على الاذن من ابن عمها أولا ، ومع ذلك أحب عنترة ابنة عمه عبلة ، واقترن اسمه

---

(١) ابو الفرج الاصبهانى : الاغانى : ج ٨ ص ٢٣٩ .

بها ، ولهج بذكرها فى شعره ، ووضعت الحواجز أمام هذه الرغبة ، وأنى له أن يحققها وهو الذى لم يولد حرا من أم حرة ٠٠ وهو الأسمر المعروف بشفته الفلحاء ، واندفع الفتى يتفوق على الفرسان ويستكمل مقومات المثال الذى تنشده الجماعة فى الفارس الكامل ، وكثيرا ما غضب وهجر قومه لكى يحسوا الفراغ بدونه ، ويستشعروا الحاجة الملحة اليه ، وتتحول أخباره الى المألوف فى بطولات الخوارق ، ويطلب عمه من ابن أخيه أن يقوم بالمستحيل لكى يحظى بشرف الاصهار اليه ، أن يأتى بالنوق العصافير ٠

وتختلف قصة الحب التى قرنت اسم عبلة بعنترة فى أذهان الرواة والعلماء وعامة الناس عن مثيلتها فى العصر الاسلامى ، فنحن نذكر أن أبا الفوارس ، ردد اسم صاحبته كثيرا فى شعره ، بل أنه جعلها محورا رئيسيا تدور عليه معلقته المشهورة ، ومع ذلك لم تقم هذه القصة على الصراع بين الحب الأفلاطونى من ناحية ، وبين عرف الجماعة أو تقاليدها من ناحية أخرى كما هو الشأن فى قصة « ليلى والمجنون » ٠٠٠ كان الحب عند عنترة حافزا رئيسيا من الحوافز النفسية على تحقيق الوجود ، والظفر بالحرية ، والتفوق على الفتيان والأنداد ، ولم تكن رمزا لوجود خلاف أو صراع بين الفرد وبين اطاره الاجتماعى ٠٠٠ كانت عند عنترة العامل على الالتحام بالاطار الاجتماعى ، وتأكيد المثال الذى ترتضيه الجماعة لكل فرد حر من أفرادها الأحرار ٠

أما ليلى وصاحبها قيس ، فكانت قصتهما رمزا لتطور جديد من النموذج في القبيلة الى الشخصية الفردية في المجتمع الاسلامي • والحب في القصتين عذري عفيف • وهو ما ميز عنترة بن شداد العبسي عن الفرسان الجاهليين النابهين في نظر الشعب العربي ، فانتخبه وعمل على تجسيم شخصيته والتزيد في سيرته وأخباره ووقائعه • ولابد للباحث أن يفرق هنا بين صنيع الخبر التاريخي ، أيا كانت صلته بالواقع ، وبين الملحمة الشعبية ، فان الأول يتسم بالتعميم ويؤثر التبرير ، وقد يميل الى التعليل ، أما الثانية فتجنح الى التفصيل والتخصيص بما تعرض من شخوص ومواقف وعلاقات وأقوال •• وأيا كان الأمر من ناحية التحقيق التاريخي ، فان قصة الحب كانت محورا رئيسيا جعلت عنترة لا يذكر الا اذا ذكرت معه صاحبته عبلة • وليس أدل على هذا الاقتران من قيام تقاليد الزواج في بعض البيئات البدوية الى الآن بتمثيل فروسي لعنترة وعبلة حتى في بعض امارات الخليج العربي •

وكان من الطبيعي أن يتحد التفوق في الفروسية بالنبوغ في الشعر ابان العصر الجاهلي وفي مرحلة نقاء الجنس ذلك لأن الشعر لم يكن مجرد تزجية فراغ يقوم بوظيفة التسلية والترفيه ، ولكنه كان في واقع أمره جهدا حيويا تتطلبه القبيلة في تحقيق وجودها المتميز بأنسابها ، المتفوق بأيامها ، ولذلك امتزجت الفروسية بالشعر ، واشتهر بهما معا صوالون قوالون من فرسان الجاهلية •

ولا تحجب الطبيعة الغنائية الغلابة على الشعر الجاهلى وظيفته الحيوية فى القبيلة ، ومهما استطاع الباحث أن يتبين بعض المقومات الشخصية فى عنترة العبسى ، فان هذه المقومات انما تصور النموذج والمثال لما ينبغى أن يكون عليه الفارس الجاهلى ، وهذه معلقة عنترة المشهورة تصور بجلاء هذا النموذج ، وذلك المثال ، فهو لا ينازل الا خصما يكافئه قوة وشجاعة ، وكرم محتد • وهو « يعف عند المغنم » والعلاقة بينه وبين فرسه آصرة تضعف أمامها جميع الأواصر ••• انه ليس كائنا خارجا عن ذات الفارس ، ولكنه جزء لا يتجزأ من شخصيته ، وبينهما من التعاطف ما يجعله نجى الفارس ، وكأنه القرين الخفى أو القوة الدافعة الى النصر ، أو الضمير الضابط للسلوك • ولقد عرفت الآداب الأوروبية هذه الحقيقة الرائعة فى شعر الفروسية العربية فسجلتها ونقلت الكثير من شواهدها • وعنترة فى معلقته سمح كريم يستعلى على الصغائر ، وينهض بما ينبغى للفروسية من تقاليد فى الشراب وما اليه فهو « هناك رايات الخمار » ومن الظلم لشعر الفروسية الجاهلية أن يحكم عليه بمعيار أخلاقى فحسب ، فلا تزال أمثال هذه التقاليد موجودة فى البيئات الجرمانية التى ترد أصولها الى الفروسية •

وفطن الشعب العربى الى هذه المقومات جميعا فى عنترة بن شداد العبسى فانتخبه ، مؤثرا اياه على غيره من الفرسان الجاهليين ، وألف من صراعه فى سبيل الحرية وظفره بها

عن طريق النفع العام ، ومن حبه العذرى العفيف لابنة عمه ، ومن عمله الدائب على تحقيق الوجود والتفوق معا ، ومن اتصافه بالمروءة العربية التى تجمع فى قوسها أسباب القوة والشهامة والاستعلاء وحماية الأهل والوطن والمال ، واغاثة الضعيف والملهوف ٠٠ ألف من هذا كله نواة متحـدة العناصر ، منسجمة الأجزاء ، وأخذ ينميها ويصقلها لتكون تعبيرا متكاملا عن رأيه فى نفسه وعن موقفه من غيره ، وعن الأهداف التى ينبغى أن يعمل لتحقيقها ، فكانت الملحمة التى أخذت مكانها بين الروائع من ملاحم الشعوب ٠

تاريخ السـيرة :

ولقد حرص بعض مؤرخى الأدب العربى الجـاهلى شرقيين ومستشرقين ، على الموازنة بين الأخبار والروايات من جهة ، وبين المعالم التاريخية البارزة من جهة أخرى لكى يحددوا الفترة الزمنية التى استغرقتها حادثة أو واقعة ، ولكى يضبطوا التاريخ ـ ولو بصورة مقاربة ـ لميلاد علم من الأعلام أو رفاقه ٠ ونحن نسجل هنا أن الجاهلية المعروفة ليست كل الزمان الذى سبق التاريخ العربى المدون ٠٠٠ انها ليست عصر ما قبل التاريخ العربى ، ولكنها الجاهلية الثانية باعتراف المؤرخين الأقدمين أنفسهم ، وسبقتها من غير شك جاهلية أولى أطول عمرا ٠ والجاهلية الثانية التى أثمرت عنترة بن شداد العبسى ، انما سبقت الاسلام بفترة وجيزة ، وعلى الرغم من القول المردد فى انكار الروايات

والأخبار المتعلقة بهذا الفارس الشاعر ، وعلى الرغم أيضا من شك بعض الدارسين فيما نسب الى أبى الفوارس من شعر فصيح ، فان هناك علاقة وثيقة بين هذا الفحل من أصحاب المعلقات ، وبين أيام داحس (٢) والغبراء ، وهى الأيام المشهورة بوقائعها التى اشتجرت بين عبس وذبيان وما من كتاب سجل « أيام العرب » طوالها وقصارها الا وذكر معها اسم الشاعر الفارس عنترة بن شداد العبسى ، ولقد جمع عنترة فى هذه الأيام بين الفروسية والشعر معا ، وما أكثر ما أبلى فيها البلاء الحسن هجوما ودفاعا وحماية للظعائن ومن شعر عنترة فى وقعة الفروق التى تبعد عن سوق هجر نصف يوم يقول عنترة :

ونحن منعنا بالفروق نساءنـا
نطرف عنها مبسلات غواشيا

حلفت لها والخيل تدمى نحورها
نفــارقكم حتى تهزوا العواليا

ألم تعلموا أن الأسنة أحرزت
بقيتنـــا لو أن للدهر باقيـــا

ونحفظ عورات النســـاء ونتقى
عليهن أن يلقين يومـــا مخازيا

---

(٢) اسما فرسين لقيس بن زهير وتشتعل هذه الحرب أيام المريقب وذى حساء واليعمرية والهباوة وفروق وقطن .

ونحن اذا حاولنا أن نؤرخ لهذه السيرة الشعبية فان علينا أن نتذكر حقيقة بارزة لا يمكن اغفالها وهي استحالة تحديد فترة مضبوطة استغرقتها قريحة أديب ما في الجمع والتأليف ، ذلك لأن الآثار الشعبية تتسم بالحياة والمرونة معا ... تسقط منها حلقات ، وتضاف حلقات ، ويتعدل السياق ، وتختلف الوظائف وان ظلت المحاور الرئيسية على حالها لثبات الحوافز الى وجود هذه الآثار وتفاعلها المستمر مع وجدان الشعب العربى • وليس صحيحا أن يزعم دارس أن هذه السيرة وأشباهها قد نجمت في حدود سنوات بأعيانها ، وأنها من تأليف شخصية معروفة بمقوماتها النفسية وخصائصها الأسلوبية • والصحيح أنها كانت نواة ثم نمت على الأيام حتى تكاملت فاستقرت آخر الأمر على صورة ثابتة لا تكاد تتغير ، والصحيح أيضا أنها ، حتى بعد مرحلة التكامل والثبات ، تتعرض لما تتعرض له النصوص الشعبية ، فتنفرط بعض حلقاتها ، وتتخذ أشكالا جديدة ، وقد تنمو خلية منها بمعزل عن أصولها ، وقد تتبدد كلها وتبقى ظواهر في أمثال الشعب ، أو بعض تقاليده •

وتفضل سيرة عنترة غيرها من السير الشعبية التي نمت عن نواة في العصر الاسلامي المتأخر ، مثل سيرة بني هلال ، ذلك لأن عنترة بن شداد العبسى من فرسان الجاهلية ، ومن فحول الشعر الفصيح ، أما بنو هلال فهم جمع حاشد من فرسان قيس ، كروا على الوطن العربي أواخر العصر الفاطمي ، ومن اليسير على الباحث أن يوازن

بين مقومات عنترة فى الأدب الفصيح ، وبين مقومات السيرة الشعبية أو أن يوازن بين النواة ، وبين تلك الصـــورة المتضخمة فى الأدب الشعبى .

وهناك أخبار تحاول أن تعلل السبب فى تأليف سيرة عنترة ، بل تحاول أن ترد هذه السيرة الى مؤلف بعينه ، وهذه الأخبار تزعم أن قصر الخلافة الفاطمية فى الديار المصرية تعرض لفضيحة تزرى من شأنه بين العامة ، فطلب الى أديب معروف بأن يؤلف قصة مشبـــوقة تلهى الشعب عن فضيحة القصر ، فكانت سيرة عنترة ، ونحن قبل أن نناقش تلك الأخبار ، نرى من واجبنا أن نسجل ، أن الأدب الشعبى العربى ، بل كل أدب شعبى كثيرا ما يجنح الى خلق قصة تبرر أصلا من الأصول أو تلفق سببا من الأسباب ، وهو أسلوب شعبى يعمد الى تغطية الثغرات ، والابهام بمعرفة المجهول ، والميل الدائم الى التبرير ، لا بمنطق العقل ، ولا بتسجيل الواقع ، ولكن بأسلوب التخيل الفنى .

وقد نقل أحد مؤرخى الأدب العربى المحدثين أنه قد « نشأ بمصر من أفاضل الرواة الشيخ يوسف بن اسماعيل كان يتصل بباب العزيز فى القاهرة فاتفق أن حدثت ريبة فى دار العزيز لهجت الناس بها فى المنازل والأسواق فساء العزيز ذلك وأشار الى الشيخ يوسف أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث . وكان الشيخ

يوسف واســع الرواية في أخبار العرب كثير النوادر والأحاديث ، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبي عبيدة وعن ابن هشام وجهينة اليماني الملقب بجهينة الأخبار وعبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعي وغيرهم ، فأخذ يكتب قصة لعنترة ويوزعها على الناس ، فأعجبوا بها واشتغلوا عما سواها • ومن تلطفه في الحيلة أنه قسمها الى ٧٢ كتابا والتزم في آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الكلام الذي يشتاق القارئ الى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى الأول ، وهكذا الى نهاية القصة • وقد أثبت في هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها غير أنه لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها بما وقع فيها من الأغلاط المكررة بتكرار النسخ » •

وهذا القول يعني أنها من تأليف شخص واحد بذاته وأن بناءها الفني الضخم تكامل في اطار زمني محدد وبحافز من خارج نفسية هذا المؤلف • هو قول لا يحتاج الى كبير عناء في نقده ، وان كان يدل على اعزاز العامة من العرب للبطل عنترة •

ومما يدخل في باب الايهام الفني تشبث السـيرة نفسها ، بعد أن تكاملت ، بالانتساب الى واحد من أعاظم الرواة والاخباريين وهو الأصمعي ، ولم تحفل السـيرة بترجمة صحيحة لهذا الراوية الفحل ، ولم تشغل مستمعيها

أو قراءها بعد ذلك بطاقة الحياة الانسانية ، ولكنها عمدت الى أسلوبها المقرر المعروف بالجنوح الى المبالغة فى الخيال ، فقد ذكرت أن الأصمعي من المعمرين ، وأنه عاش ما يقرب من سبعة قرون ، ولم يكن هذا التلفيق عبثا ، وانما كان فنيا فى جملته وفى تفصيله للايهام بأن هذا الراوية عاصر أحداثا وأجيالا ، وأن ذاكرته كانت بمثابة التاريخ القومى للأمة العربية بأسرها • وحرصت السيرة على أن تذكر أنها انما نشأت فى العصر الذهبى للدولة الاسلامية ، أى فى عصر هارون الرشيد ، وفى بلاطه ، وذلك لكى تؤكد الحافز على تكاملها وهو الموازنة الضرورية بين واقع الأمة العربية المغلوبة على أمرها فى أوليات الحروب الصليبية ، وبين عصر البطولة الجاهلية ، وما ينطوى عليه من فضائل نقاء الجنس ، والعصر الذهبى الذى بلغته أمة العرب والاسلام أيام الرشيد عندما كانت هى الأمة المستكملة للتفوق الحضارى على غيرها من الأمم • فاذا أضفنا الى هذا كله التشبث بالمنهج الفنى نفسه ، تأكيدا لواقعية الأحداث بالقول بأنها روايات مباشرة عن عنترة نفسه ، وعن حمزة ، وأبى طالب ، وحاتم الطائى ، وامرىء القيس ، وهانىء بن مسعود ، وحازم المكى ، وعمرو بن ود ، ودريد بن الصمة ، وعامر بن الطفيل ، فاننا نكاد نقطع بأن التشبث بالأصمعى ، وايراد أسماء هؤلاء الأعلام جميعا ، لا يدل على حقيقة تاريخية أو شبه تاريخية ، بقدر ما يدل على الايهام الفنى بواقعية الأحداث والشخوص ، وان خرجت عن المألوف والممكن والمعقول •

وكل من يراجع هذه السيرة فى صورتها المتكاملة المدونة يجد أنها تردد مصطلحات معروفة فى عالم التأليف العربى ، وهى مصطلحات متباينة الدلالة ، وتوهم بدورها ، بأن السيرة متعددة المصادر ، منوعة الموارد ، مختلفة الأطوار . فهى تذكر - مثلا - الراوى وهو كما نعلم مصطلح يدل على جامع الأخبار والأقوال عن طريق المشافهة واللقاء المباشر ، وتذكر الناقل ، وهو لفظ يدل على حكاية الخبر بحذافيره ، كما يدل على التطور من الرواية الشفوية الى النسخ والتدوين ، وتذكر المصنف ، وهو الذى يعمل على الجمع والترتيب معا ، وهو مرحلة أقل هونا من المؤلف . ويبدو أن هذه المصطلحات انما اقتبست من رواية التاريخ والأدب الفصيح ، ونحن نعلم أن المعرفة العربية ، احتفلت منذ البداية بالخبر والاسناد معا ، وهو تقليد نفذ الى منهج الأدباء الشعبيين الذين اتخذوا فى مجتمعاتهم سمت العلماء ومكانتهم .

ويدخل فى هذا الباب ما تورده السيرة أيضا ، من أن لها موردين رئيسيين ، أو روايتين مختلفتين ، فهى تذهب الى أن هناك « السيرة الحجازية » لكى تدخل فى روع المتذوقين أنها جمعت من أفواه أبطالها مباشرة . وجنحت تبعا لذلك الى جعل الحجاز هو الموطن الأول لأحداثها ، وهو تلفيق لا يحتاج الى معاناة فى رفضه ، وذكرت أيضا ، أن هناك السيرة العراقية ، وربما أسهمت

العراق فى نمو هذا الأثر الشعبى ، ولكن القول بوجود رواية عراقية متميزة ، لا يستند هو الآخر الى واقع أو شبه واقع ... وخير من هذا كله أن يحاول الباحث تمييز الاشارات التى تنطق بيئتها وعصرها ، والتى تدل مجتمعة على أطوار النمو والتكامل .

لقد استغرق مسرح الأحداث فى هذه السيرة الشعبية العالم المعروف بأسره قبل الكشوف الجغرافية ، كما أن الزمن الذى استغرقته يستوعب ما يقرب من ستة قرون ، ومع ذلك فان الباحث يستطيع أن يحدد ـ بصفة مقاربة ـ المرحلة الأولى لنموها من النواة الجاهلية الأصلية الى شجيرة تنم عن فصيلتها ، وذلك بالرجوع الى المجلد الحادى والثلاثين من هذه الملحمة الطويلة الضخمة ، فان عنترة يغوص فى نفسه ، ويستجمع وقائع سيرته وهو يحتضر بقصيدة طويلة ، وهو فيها يفاخر بانتصاراته فى جزيرة العرب ، وفى العراق ، وفارس ، والشام ، ولكنه لا يشير من قريب أو بعيد الى بلاد الروم ، أو الأندلس ، بل لا يذكر شيئا عن برقة ومصر والسودان والحبشة وبلاد الهند . وهذه القصيدة انما تنبض بعاطفة حب واحدة وهى العاطفة التى عرفناها عند عنترة بن شداد الفارس الجاهلى ، ولذلك يمكن أن يقال ان النواة التى أثمرتها الفروسية الجاهلية ، والتى قرنت اسم عنترة بعبلة ، وجعلت منهما المحور الرئيسى للأحداث هى التى ترعرعت فى مرحلتها الأولى ، ثم مرت بعد ذلك بمرحلة تالية تكاملت فيها .

ويذهب المستشرق هلر الى أن سيرة عنترة انما بدأ تصنيفها في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ، وان كان قد أورد بعض الأدلة التي تبين أن هذه السيرة كانت معروفة في طورها الأول قبل ذلك بحوالى ثلاثة قرون (٣) ٠

ولا يزال الدارسون يعكفون على النظر في مخطوطات هذه السيرة المبعثرة بين دور الكتب في القاهرة وصنعاء واستطنبول وباريس ولندن وبرلين وغيرها ٠ وقد تنتهي دراساتهم الى نتائج ذوات قيمة في ترجيح فترة زمنية أو فترات زمنية ، استغرقتها هذه الملحمة الضخمة في التطور ثم التكامل فالثبات على صورتها الأخيرة التي يعرفها العالم الآن ، بيد أن هذه النتائج لن تخرج على الترجيح الى اليقين ، ذلك لأن مثل هذا النص الشعبي في تأليفه وتذوقه جميعاً ، لا يمكن أن يخضع للأصول والقواعد التي تخضع لها نصوص التراث الرسمي ، أو الفصيح المعتبر ، ولقد فات بعض الباحثين أن النص الشعبي ، وان قام في أصله على الحفظ والرواية الشفوية ، والأداء المستقل عن القراءة فانه يتوسل بالتدوين في بعض البيئات والعصور ٠ وهذا التوسل لا يخرجه عن شعبيته بحال من الأحوال ٠ والمتخصصون في الفنون والآداب الشعبية يقرون هذه

---

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، ج ١٢ ، ص ٤٦٥ ٠

الحقيقة ويسجلون بعض الشواهد التى توسلت بالتدوين ويذهبون الى أن الشواهد الشعبية المدونة متأخرة عن مرحلة الابداع وما تلاها ويلاحظون أن بعض المحترفين يلجأون الى التدوين ، خوفا من ضـــعف الذاكرة ولكنهم فى الوقت نفسه كثيرا ما يستعملون رموزا خاصة بهم يثبتونهـا فى تضاعيف النص حتى تظل النصـوص مصـونة ، الا على أصحاب الحرفة ، كما أنهم يسـقطون فى أحيـان أخرى مشاهد كاملة ويكتفون بمجرد الاشارة اليها لأن هذه المشاهد من الذيوع والشـهرة بحيث لا تنـد عن الذاكرة • وهى مشاهد كثيرا ما ينقلونها من سيرة الى سيرة • ومن أجل ذلك كان من الضرورى أن يعتمد الباحث على الأداء الحى المتكامل وأن يعمد الى تحليله من داخله قبل أن ينظر فى المخطوطات •

وتقودنا هذه الحقيقة الى حقيقة أخرى لا تقل عنها أهمية ، فيما يتعلق بتاريخ السير الشعبية العربية بصفة عامة ، وتاريخ سيرة عنترة بصفة خاصة وهى أن الظواهر الأسلوبية لا تقوم هى الأخرى دليلا على عصر التأليف أو بيئته أو شخصية المؤلف أو المؤلفين لأن سيرة عنترة وأمثالها تخضع للقوانين التى تحكم المأثورات الشعبية ، فان هذه المأثورات تسير فى طريقين متعاكسين ، أولهما من قاعدة الهرم الاجتماعى الى ما فوقها من الطبقات الاجتماعية والثانى يسير من قمة الهرم الاجتماعى الى سفحه •

ولا يتعارض هذا السير مع شعبية تلك المأثورات كما أن القرية كثيرا ما تأخذ من البداوة وكثيرا ما تعطى المدينة • وفى مقابل هذا تتقبل البيئة الريفية بعض ما تصدره المدينة من القيم والمثل ومن التعابير الأدبية والفنية • وسواء أكانت سيرة عنترة قد انحدرت من القمة الى السفح وبدأت جزلة اللفظ معربة التركيب أنيقة الصياغة ، أو ارتقت من القاعدة فصقلت ألفاظها وأحكمت عباراتها فانها فى الحالين ارتبطت بالشعب : هو الذى انتخبها ونماها ، أو أعان تنميتها وهو الذى جعلها جزءا لا يتجزأ من كيانه المعنوى يعبر بها عن ذاتيته العامة وموقفه الخاص فى مختلف البيئات وعلى مر القرون • ونحن نضرب المثل على الفارق بين أسلوبين فى نسخ السيرة ولننظر فى هذه العبارة الأنيقة : « قال الأصمعى ، ونزلت عليهم البوائق • وحقت منهم الحقائق • وتضاربوا بالسيوف على العواتق فقطعت منهم العلائق وتطاعنوا بالرماح فكانوا للدروع خوارق ، وتضاربوا بالسيوف فكانوا كالصواعق ، فلم ير الا رمح خارق وسيف بارق وفارس شاهق والخصم لخصمه معانق والشجاع فى الدم غارق • والقنا عليهم قد مد على الفرسان سرادق ،فسبحان العظيم الخالق ، والحاكم بالفنا على الخلائق » (٤) وهذا وصف يتسم بالتعميم لاحدى

(٤) من مخطوطة عن المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة مصورة من نسخة بمكتبة أحمد الثالث باستامبول ، وتجد وصفا لها وتحليلا فى (سيرة عنترة للدكتور محمود الحنفى ذهنى) رسالة جامعية ص ١٣٢ •

المعارك التى خاضها عنترة منتصرا على أعدائه ، ومن الممكن تطبيقه على أية معركة أخرى فى سيرة شعبية غير هذه السيرة .

أما المثل الثانى فهو أيضا على تعميمه يختلف عن الأول من ناحية الأسلوب : وهو تصوير لمعركة خاضها مظفرا الغضبان بن عنترة « قال الراوى : انهما حملا على بعضهما بعض وجالا طولا وعرض ومال كل منهما على صاحبه واحترز من وقع طعانه ومضاربه وتثلمت فى أيديهما سيوفهما وكلت سواعدهما فعند ذلك حقد الغضبان على خصمه وهجم عليه كأنه فرخ الجان وضربه بالحسام فالتقاه بكفه فانقطع وأثنى على رأسه فوقع وعن جواده مال وانصرع فصاحت بنو مزينة فحملت على الغضبان حملة عنان فهنالك علم مقصودهم فحمل والتقاهم بقلب أقوى من الحجر وجنان أجرى من تيار البحر اذا زخر وسطا على الشجعان ومال على ذلك الجمع وأبلاهم بالضرب والطعان فصار يجول فيهم وحده وهم يتنافرون من بين يديه ، وما منهم أحد يستطيع الوصول اليه وداموا على ذلك الحال الى وقت الزوال » (٥)
وعلى الرغم من الفارق بين المشهدين فاننا نلاحظ التفاوت الهائل فى الأسلوب مما يؤكد تداخل الثقافة الشعبية فى

---

(٥) سيرة عنترة بن شداد ـ طبعة القاهرة ـ مطبعة سعيد الخصوصى ، المجلد السادس ص ١٥٤ .

العلم التقليدى والأدب الرصين ، وهذا ثمرة الحركتين اللتين تسير فيهما المأثورات الشعبية صعودا وهبوطا بين قمة الكيان الاجتماعى وسفحه .

وليس من شك فى أن التدوين ثم الطباعة ، قد أعانا على ثبات هذه الملحمة الشعبية الرائعة وارتقيا بها من ناحية الثقل والتناسب ، ولكن ذلك لم يمنع الناسخين والطابعين من التحريف فى أحيان كثيرة ومن التزيد واقحام عناصر تخرج عن اطارها الفنى . وخير للدارس أن يحاول الابانة عن عناصرها أو طلقاتها الكبيرة ، لأن فى ذلك الكشف عن الحوافز التى دفعت الشعب العربى الى انتخاب عنترة ابن شداد العبسى الشاعر الفارس ، الى انتخابه وتصويره بطلا قوميا وانسانيا فى وقت واحد وهذه البطولة هى التى استوعبت مثل الشعب العربى وقيمه الأخلاقية وآماله فى تحقيق الوجود والتفوق ، كما حققهما عنترة فى سيرته الشعبية الرائعة .

بطولة عنترة

وهذه السيرة يغلب عليها الطابع الملحمى وهى تماثل السير الشعبية الأخرى من هذه الناحية ولكنها فى الوقت نفسه أوسع مجالا من شقيقاتها . وهى كغيرها من الملاحم تختلف عن كتاب « ألف ليلة وليلة » الذى يجمع المتخصصون فى الآداب الشعبية على جعله مثالا للقصص

الشعبى على الرغم من أسـلوبه وبنائه الفنى · ويأتى الاختلاف من الناحية الوظيفية في كل منهما ، فان الليالى تعمد الى التشويق بالجمع بين التنوع والتداخل معـا ، أما سيرة عنترة فأدنى الى الكائن العضوى الذى أخذ فى النمو حتى تضخم عندما تكاملت صورته · ووظيفة الليالى هى العمل بوساطة القصص على ايثار الوسط الذهبى فى السـلوك وهو الاعتدال وعدم الاسـتجابة لنزعات الغضب وهى وظيفة عرفتها الحكايات الشعبية الهندية قبل « ألف ليلة وليلة » بأحقاب وأحقاب · بيد أن سيرة عنترة انما تستجيب لحوافز قومية وانسانية ، وقد تحولت آخر أمرها الى عامل حيوى من عوامل التسلية والترفيه بتفريغ شحنة الشعور عند العرب بوسيلة تخيلية تجعل الحلم مقدما على الواقع فى نفوس الجماهير ·

ويستطيع الباحث أن يستجلى مراحل البطولة العنترية فى السيرة باستجلاء مختلف الوظائف التى تقوم بها · واذا كان الدارسون قد استطاعوا أن يتبينوا فى كتـاب « ألف ليلة وليلة » بيئات مختلفة تكاملت فيها الليالى مثل بيئة الهند وفارس وبيئة العراق وبيئة مصر فاننا بالاعتماد على الجانب الوظيفى فى السيرة نستطيع أن نتبين الحلقة العربية القومية والحلقة الاسلامية والحلقة الانسانية الى ما يشوب هذه الحلقات من حصيلة معرفة وركام أساطير ·

ولقد استغرقت السيرة خمسة قرون أو تزيد ، واستنفدت في تأليفها حتى تكاملت مرحلة أطول • وهي لذلك تشبه بؤرة العدسة في تجميع المعارف والخبرات والتعابير والروايات والأخبار ، ولما كانت الشعوب ليست جزرا منعزلة عن الجماعات الانسانية الأخرى ، فان سيرة عنترة تعكس تراكم الثقافة العربية على مدى القرون ولا تجد بأسا من تمثل ثقافات أخرى من بلاد فارس ومن بيزنطة وروما ومن قلب افريقيا ، بيد أن هذه العناصر الثقافية كلها قد انتخبها مزاج الشعب العربي ، وطبعها بميسمه •

ولنبدأ بالحلقة العربية القومية وهي تضرب بجذورها في جزيرة العرب ، وهي موطن نقاء الجنس وتنتظم تاريخ الشعب العربي في الجاهلية والاسلام معا وهي تشبه ـ الى حد ما ـ أيام العرب التي تنقسم الى أيام جاهلية وأخرى اسلامية • ولقد فطن مؤلفو السيرة الى وجوب المزاوجة بين الوظيفة القومية والوظيفة الدينية فمهدوا لأحداث الملحمة بقصة سيدنا ابراهيم عليه السلام وساروا في ذلك على منهج مصنفي التاريخ العام ومنهج النسابة الذين يقدمون لوقائع التاريخ أو سلاسل النسب ، بالحديث عن سيدنا ابراهيم وفي ذلك ارهاص بظهور الاسلام في الوقت نفسه •

وفي هذا الاطار نشأ عنترة مع ابراز الاستعداد لنشأته ، وعند القصاص الشعبي الصورة الكاملة للفارس العربي كما ينبغي أن تكون في خياله ، ولذلك رأينا هذا

القصاص يرسم صورة عنترة في طفولته مخالفة كل المخالفة لصورة الأطفال والغلمان فقد كان وهو رصيع يمزق الأقمطة ، ويسقط الخيمة وهو في الثانية من عمره ، ويقتل الكلب وهو ابن أربع ، والذئب وهو ابن تسع ، والأسد وهو فتى ، حتى اذا استكمل مؤهلات الفروسية نهض بتبعاتها كخير ما ينهض الفارس المثالي وتجاوز الدفاع عن القبيلة الى توحيد الجزيرة العربية فنازل الأقران حتى اعترفوا به مقدما عليهم وصرع الأعداء الذين يكافئونه عزيمة وجلدا واقداما • وهو في هذه المعارك والثارات يحقق فضائل الفروسية ويوحد العرب ويستعلي على الصغائر ويكتفي من بعض أعدائه بالاقرار له بالغلب • ويصدر في سلوكه عن حب عذري لابنة عمه عبلة ، ويجعل من حبه هدفا يمتزج بتحقيق الفضائل والمثل : من أجلها ومن أجل المجتمع بأسره حقق ذاته ، وباسمها كان القسم حتى في حومة الوغى ، وبين قعقعة السلاح وسقوط الأبطال ، تماما كما هو شأنه في الأدب الفصيح حين يهتف بهذين البيتين الرائعين :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المبتسم (٦)

(٦) ديوان عنترة •

ومن أبلغ أمارات الفروسية العربية الالحاح على علاقة الفارس بسلاحه رمحا كان أو سيفا ، وهى علاقة تسبغ الحياة على السلاح وتمنحه اسما يخصصه ويعرف به وتجعله جارحة أصيلة من جوارح الفارس لا تنفصل عنه فالسيف ليس وسيلة فحسب ولكنه ارادة الفارس المحققة لأهداف الفروسية • وليست سيرة عنترة بدعا فى تأكيد هذه العلاقة بين ملاحم العرب الأخرى ولكنها تبالغ فى تصويرها • ويشبه عنترة في عشقه لسيفه ، وفى حرصه عليه بطلا آخر فى سيرة عربية أخرى هو « دياب بن غانم » فى سيرة بنى هلال الذى أوصى ، اذا بلغته الوفاة أن يدفن الى جانب سيفه : ومن هذه الأمارات البليغة أيضا تعلق الفارس بالفرس فانها أعظم بكثير من أن تكون مجرد مطية للفارس تعينه على الرحلة وعلى القتال : انها أكبر من أن تكون شارة عز وسؤدد لصاحبها فى المجتمع الذى ينتسب اليه • ولقد كان « الأبجر » فرس عنترة رفيق سلاح فيه ملامح انسانية ، بل فيه أحيانا ملامح أسطورية ، وليس هناك أوفى من الفارس لفرسه ، ولا أحب من الفرس للفارس وان صورة عنترة وهو يتاهب للمعركة او يخوض غمارها أو يعود منها منتصرا على عدوه لمن أروع الصور فى ملاحم الشعوب على اختلاف عصورها وبيئاتها •

وكان من الطبيعي أن تتطور الوظيفة القومية العربية الى وظيفة اسلامية ، ذلك لأن الوظيفتين لا تتعارضان ولكنها تتكاملان والوجدان الاسلامى انما هو نمو للوجدان

القومى العربى · وكان من اليسير على القصاص الشعبى أن يمزج الوجدانين ، وما أيسر أن يتوسع فى الوجدان القومى حتى يلتقى بوجدان أرحب هو الوجدان الاسلامى ، وأمامه « أيام العرب الاسلامية » ولكنه لم يصدر في توسعه عن عصبية ضيقة ، قبلية كانت أو اقليمية ، وانما صدر عن مثل أعلى يحاول تمهيد الحياة للاسلام · من أجل هذا كله تجاوز عنترة بن شداد الجزيرة العربية ورحل الى فارس والى بلاد الروم وسار ـ ولكن بطريق عكسى فى نفس الربوع التى سارت فيها الفتوح الاسلامية · وكان عنترة يعين قوما ويحارب أقواما ، وفى هذه المرحلة ظهرت ملامح من المجتمعات الصليبية ، وبرزت شواهد تدل على معرفة القصاص الشعبى ببعض مقومات المجتمعات الصليبية ، ويبدو أنه ثقف هذه المعرفة فى الفترة الأولى من الحروب الصليبية ، ويبدو أيضا أنه استمد معرفته من تلك الجيوب التى تسللت الى داخل الوطن العربى ·· ولقد صورت السيرة الشعبية التسامح الاسلامى كأعظم ما يصور ، وفرقت بين السلام وبين الاستسلام وليس هناك اعتراف بهذه الفضيلة أقوى من اعتراف المستشرقين أنفسهم وهم يوازنون بين صنيع سيرة عنترة من ناحية وصنيع الملاحم الأوربية التى تكاملت فى القرون الوسطى · وهناك ما يقوله أحد هؤلاء المستشرقين :

« أما العطف الواعى على المسيحية والنظرة السمحة اليها فان الصورة التى نستشفها من سيرة عنترة فى ذلك

تسمو كثيرا على الصـــورة التى تتكشف لنا عن النظرة التى تنظر بها الملحمة المأثورة عن مسيحية القرون الوسطى الى الاسلام حيث يصور المسلمون وهم يعبدون أصناما من قبيل أبولو ، وكاهو ، وكوملان ، وجوبتر ، ومارجـو ، ومالكدان ، وتيرفاجان وما اليها ، وتنظر سيرة عنترة الى الحروب الصليبية نظرة لا تخلو من العطف والاعجاب • صحيح أنّ الصليبيين يذكرون فيها فيقال انهم أولئك الذين يشخصون الى الأراضى المقدسة طلبـا للغنائم وفرارا من العقـاب • الا أن الفرنجة يقاتلون في سبيل الرب وفى سبيل نشر الدين » (٧) •

ومن الظواهر التى لها دلالتها فى هذه السيرة أنها كانت تحاول أن تجعل الأعداء ، فى معظم الأحيان أندادا للبطل عنترة ، بل انها بالغت كثيرا فى الالحاح على هذه الظـاهرة حتى جعلت بعض فرسان الصليبيين من أبنـاء الفـارس العـربى وفى هـــذا ، ما يـدل على الاعتراف بشجاعتهم ، ورد هذه الشجاعة بطريقة فنية لا تقيم وزنا للواقع التاريخى الى أصل عربى فنحن نجد أن ولدى عنترة الذين أخذا بالثار من قاتل أبيهما فارسان من بيئة غير اسلامية هما الفارسان المسيحيان ، بل الصليبيان الغضنفر قلب الأسد وهو ابنه من أخت ملك رومه التى تزوجها وهو فى رومه والجوفران (ولعله جوفرى) وهو ابنه من أميرة

(٧) برنهاود هيلر : دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية المجلد ١٢ ، ص ٤٦٢ •

افرنجية ، وما أروع القصاص الشعبى الذى أبرز بنوكيهما للبطل العربى قبل حادث مصرعه ثم ألقى عليهما تبعة الثأر لأبيهما • وما أروعه كذلك عند تصويره لهذين الفارسين غير الاسلاميين ، وهما يتلقيان نبأ موت أبيهما ، وكل ما يريد أن يقوله عن طريق الفن القصصى هو أن الشجاعة سمة من سمات العرب حتى ولو برزت فى بيئة أخرى •

ومن اليسير أن يواجه المرء القيم الإنسانية فى الآثار الأدبية الكبيرة مثل سيرة عنترة ، فان التحول من الصورة القومية العربية الى الصورة الاسلامية العامة يعنى بالضرورة ابراز الفضائل الانسانية الثابتة التى لا تكاد تتغير على اختلاف العصور والبيئات وعلى تباين الأديان والألوان ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الملاحم تتشابه فى بعض الأنماط والنماذج والصور ، ولعل هذا هو السبب أيضا الذى جعل الباحثين يختلفون فى البحث عن السبب • وأيا كان الباعث على التماثل أو التشابه فان سيرة عنترة ، كغيرها من الملاحم ، تنأى بجانبها عن التخصيص ويعينها ذلك على ابراز الفضيلة العامة من خلال الشخصية أو الموقف •• الشجاعة والحب والأيثار والتضحية والوفاء ، كل أولئك فضائل ثابتة تخرج فى يسر من الاطار القومى أو الحضارى الاسلامى الى الدائرة الانسانية الشاملة ، ومن هنا كانت المرحلة الانسانية فى سيرة عنترة لا تقوم برأسها كجزء يمكن ابرازه أو فصله ولكنها تتداخل فى أكثر تضاعيف هذه الملحمة الشعبية • ونحن الآن ، اذا تركنا جانبا ،

المعارف الخاصة بالبيئة الجاهلية وبالقرون الأولى من الاسلام والمجتمع الصليبى فاننا نواجه دائما المثل الانسانية العليا مشخصة ومجسمة وواضحة من خلال الوصف ، والتصوير ومن الالحاح على نتائج الصراع ، وان كان مرتكزا على الحرب فى ملحمة تقوم دعامتها الأولى على المبارزة والالتحام • وتبلغ الملحمة ، فى هذه الناحية أوجها الفنى عند ختامها الذى يلخص نبل مقصدها فلقد كانت نهاية البطل على يد غريمه الأسـد الرهيص ، وكما بالغت السـيرة فى قوة عنترة وشجاعته وبصره بفنون القتال بالغت كذلك فى تصوير غريمه حقدا ولددا فى الخصومة جعلاه لا يستطيع أن ينام عن ثأره من عنترة • وامتزج الفن القصصى بمـا ينبغى للصراع من تناقض بين الخصمين فالبطل عنترة متسامح عن اعتزاز بشهامته وكثيرا ما غلب خصمه الأسد الرهيص على أمره ، وأوقعه فى أسره ، ثم لا يلبث أن يطلق سراحه • ولكن هذا الخصم يعيش بضغنه ويعود الى التربص بعنترة ، ولقد أفقده بطل الملحمـة بصره آخـر الأمر ، ولكن وزر ابن جابر ـ وهو اسمه ـ ظل يتدرب على الرغم من كف البصر ، حتى استطاع أن يرمى الطير والغزال بقوسـه مستعينا على ذلك بالقدرة على تتبع أصواتها • وهى صورة فذة بين ملاحم الشعوب • ونجح فى أن يصيب عنترة بأحد سهامه ومات وهو يتصـور أنه أخطأ الهدف • وكانت نهـاية البطل الملحمى الكبير أبى الفوارس عنترة مناسبة لشخصيته كنموذج رائع للفارس البطل •• لقد ظل على

صهوة جواده الأبجر طودا يتحاماه الأعداء بعد أن فارق الحياة ·

قال الراوى : « ··· وسارت بنو عبس وتقدمت بين يديه وهو ينظر الى عبلة والدموع تتحادر من عينيه فلما غابت عنه وهو متكىء على رمحه بيديه فشهق شهقة ونفخ نفخة فارقت روحه جسده والجواد واقف تحته لم يتحرك من مكانه لأن هذه كانت عادته منذ تربيته ونشأته وكان عنترة مدة حياته اذا نام ينام على ظهر حصانه ··· هذا وهؤلاء العربان يظنون أن عنترة على قيد الحياة ولم يعلموا أنه شرب شراب الوفاة الا أنه واقف يطلب منهم الحرب والقتال فقالوا لبعضهم يا ويلكم ارجعوا على أعقابكم من قبل أن تعدموا نفوسكم !!! » (٨) ·

وارتفع عنترة بن شداد العبسى الى مقام أسمى من مقامات آخرين فى نظر القصاص الشعبى · ونحن نعلم أن العربى يفاخر بنسبه الذى يقص أثر آبائه ، وهو مع ذلك يفاخر بخؤولته · ولقد كان عنترة عديم الخال لأنه ولد من أمة حبشية ، بيد أن السيرة الشعبية لم تزل تسير ببطلها فى افريقيا حتى يبلغ قلبها ثم يتجه الى بلاد الحبشة ، لا يتوقف عن رحله ولا يحجم عن وقعة وهناك تستبين له الحقيقة ـ فى تصور القصاص الشعبى ـ وهى أن زبيبة أم عنترة من نسل ملكى ·· انها ابنة النجاشى ملك

---

(٨) سيرة عنترة ـ طبعة القاهرة ج ٨ ص ١٨٢ـ١٨٣ ·

الحبشة !!! وتبعا لذلك فقد كان من حقه أن يفاخر بشرف الانتساب الى عبس وشرف الانتساب الى ملوك الحبشة في وقت واحد وفي هذا تعليل فني بررت به الملحمة تفوقه في قوة البدن وقوة النفس ، كما بررت ترفعه عن الصغائر وعفته عند المغنم ٠

واذا كان عنترة العبسي العربي قد تفوق في الفروسية فقد جعلته السيرة يتفوق على الشعراء ٠ وما أروع الحيلة التي اصطنعتها تصويرا لامارته على شعراء العربية ، لقد استغلت ما أثر عن أبي الفوارس باعتباره واحدا من فحول الشعراء في الجاهلية ومن أصحاب المعلقات ، ولذلك ألحت السيرة على فضيلة الشعر الحاحها على فضيلة الفروسية ، وجمعت بين أصـــحاب المعلقات بطريقة فنية لا تقيم وزنا للرواية الأدبية المحققة ، وعقدت مباراة شعرية لا تختلف عن مبارزة الفرسان ، وحكمت آخر الأمر بالتفوق والسبق لمعلقة عنترة ٠٠ وسايرت منهجها حين جعلته من أعلم الناس بفقه اللغة العربية وبأيام العرب وأنســــابهم ، ومن ثم أصـــبحت لسيرة عنترة وظيفة تعليمية الى جانب وظيفتها الملحمية ٠ ولا يغفل القصاص الشعبي عن العظة التي لابد أن تستخلص من كل موقف ومن كل شخصية ٠ والسيرة بهذه المثابة كتاب جامع للمعارف وللعظات مع الحرص على طابعها الملحمي وبنائها الفني ٠

وتكتنف السيرة عروق أسطورية لا تثمرهـا المبالغة في الخيال فحسب ، وانما تجيئها من شوائب قديمة ومن

تصورات شعبية ، وهذه العروق الأسطورية تباين المبالغة في القدرة عند الأبطال والشخوص مبالغة تتجاوز بهـا حـدود الممكن والمعقول ذلك لأنهـا مجموعة من الأفكار والتخيلات ومن التفسـيرات غير المعقولة لبعض الأعمـال والظواهر ، وهناك شواهد كثيرة عن طول الحياة بحيث يعمر بعض الناس القرون ذوات العدد ، وعن الفأل والطيرة والحسد وعن أرض العفاريت وكهف السـاحرات اللاتي يأتين الرواسب الأسطورية سمة من سمات الأدب الشعبي وهي تضاف الى ما في سـيرة عنترة وغيرها من القدرة على قتل الأسـود ومن النسـوة المسـترجلات ، ومن التشويق بتتابع الأحداث لا بإخفاء النتيجة التي يفصح عنها التنبؤ بوساطة النجوم أو الرمال أو الأحلام ، وما الى هذا السبيل • وكما بدأت السيرة تمهد لظهور الاسلام بقصة ابراهيم عليه السلام فقد ختمت بدخول بني عبس في زمرة المسلمين •

وهكذا انتهت الملحمة الشعبية التي تعد من ز... الملاحم العالمية وان كان الراوي الشعبي يختم كلامه دائما باعتبارهـا سجل معارف وأخبـار ومواعـظ فيقول : « ••• قال الراوي لهذه الروايات والفنون فقد رأيت من سير الأولين وأخبار المتقدمين وما نقل عن القرون الماضـية ما فيه عبر لأولي الألباب وحكمة بالغة يدري المتدبر بها عين الصواب » •

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٨٨٨

ISBN — 977 — 01 — 4396 — 0

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى
خمسة وعشرون قرشا
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



الهيئة